

بين الفيحاء والشهباء

المملكة الحوية

« حماة » كلمة سامية معناها الحصن المنيع والحمى . وحماة عاصمة مملكة لا يعرف اتساعها تختلف باختلاف الدول والازمان وقد ذكر موسى اليهودي حماة الكبرى وذكر بعض الافرنج انه ربما كانت انطيوخوس الرابع ايبفان هو الذي سماها ايفانيا وسماها مؤرخو النصرانية الاول كذلك . هذه رواية الافرنج ولم يصرح جغرافيو العرب بان فامية هي حماة بعينها بل قالوا ان فامية ويقال لها افامية هي مدينة ^(١) قديمة ويطلق هذا الاسم على كورتها ايضاً وكانت فامية عظيمة قديمة على نثر من الارض لها بحيرة حلوة يشقها النهر المقلوب (العاصي) وقال ياقوت ان فامية مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص وقد يقال لها افامية قال عيسى بن سعدان الحلبي يذكرها

يا دار علوة ما جيدي بمنعطف الى سواك ولا قلبي بمنعطف
ويا قرى الشام من ليلون لانتحت على بلادكم هطالة السحب
ما مبرقك مجازاً على بصري الا وذكر في الدارين من حلب
ليت العوام من شرقي فامية اهدت الي نسيم البان والغرب
ما كان اطيب ابائي بقرهم حتى رمثني عوادي الدهر من كسب

وهذا دليل على ان فامية كانت من المدن المعروفة غير حماة يؤيد ذلك ان حماة معروفة بهذا الاسم في الجاهلية فكان الشاعر حرياً بان يذكرها بلفظها المتعارف
افتتح حماة ابو عبيدة سنة ١٧ وكانت معروفة في الجاهلية بهذا الاسم وذكرها امرؤ القيس في شعره بقوله:

تقطع اسباب اللبانة والهوى عشية رحنا من حماة وشيزرا
بسير بضج العود منه بمنه اخو الجهد لا يلوي على من تعذرا

قال ابن حوقل ان شيزر وحماة مدينتان صغيرتان زهتان كثيرتا المياه والشجر والزروع والفواكه وقال ياقوت ^(٢) ان حماة مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار واسعة الرقعة حفلة الاسواق يحيط بها سور محكم وبظاهرها سور حاصر كبير جداً

(١) تقوم البلدان لأبي الفدا (٢) مجمع البلدان

فيه أسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي عليه عدة نواعير وفي طرف المدينة قلعة عظيمة عجبة في حصانتها واتقان عمارتها وحفر خندقها نحو مئة ذراع وأكثر للملك المنصور محمد بن نقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب . ولم تكن قديماً بل ما كانت في القرن السادس من العظم بسلطان مفرد بل كانت من عمل حمص وسماها أحمد بن الطيب قرية سنة ٢٧١ وذلك فيما ذكره من البقاع التي شاهدها في سيره من بغداد واستولى الاستماعيليون على حماة زمن الصليبيين واستولى عليها تنكرد أحد ملوكهم سنة ١١٠٨ م ثم استعادها طغتكين التركي من الأفروج سنة ١١١٠ واصيبت بزلزال شديد سنة ٥٥٢ هـ - حتى ذكر المؤرخون أن أحد معلمي الكتائب خرج لحاجة وعاد وقد وقع السقف على رؤوس الأولاد كلهم قال ولم يحضر أحد من أولياتهم يسأل عن ابنه المالك وذلك لأنهم هلكوا عن بكرة أبيهم . واستولى على حماة صلاح الدين يوسف ابن أيوب .

وان ما عرف من تاريخ هذه المدينة يشهد بأن أيام صاحبها أبي الفدا استماعيل كانت أسعد من غيرها وبها وبها اشتهرت ولا عجب فالبلاد قد تسعد برجل وتشقى برجل فكما سعدت دمشق بعهد نور الدين وصلاح الدين وسعدت بغداد بالرشيد والمأمون هكذا سعدت حماة بأبي الفدا الملك المؤيد صاحب حماة والمرة وبرزين . ولم تر بعده وهو ملك من أهلها ومن أسرة صلاح الدين يوماً إلا به تلك الأيام في السعادة وبقي الخراب يغيثها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه لهذا العهد من الانحطاط . وأحر بها أن يقال لها اليوم قرية كبيرة لاقلة نفوسها فأنهم سمّوها الفاء ولا تنير معالمها وضعف زراعتها فأنها مازالت يحلها بل لقلّة عمرانها وجهل سكانها إلا قليلاً .

لم يقل أبو الفدا في جغرافيته إلا أنها : مدينة ازلية ولما ذكر في كتب الاسرائيليين وهي من انزاه البلاد الشامية والعاصي ! تدبر على غالبها من شرقها وشمالها ولها قلعة حسنة البناء مرنة وفي داخلها الارحية على الماء وبها نواعير على العاصي تسقي أكثر بساتينها ويدخل منها الماء إلى كثير من دورها وحماة بلدة قديمة مذكورة في التوراة وهي وشيزر مخصوصتان بكثرة النواعير دون غيرها من بلاد الشام

وحدد ابن فضل الله (١) حماة من القيلة الرستن وما سمته آخذاً ما بين سمية وقيّة ملاعب إلى حيث مجرى النهر والآثار القديمة ومن الشرق البر آخذاً على سمية إلى ما

استقبل عن قبة ملاعب ومن الشام آخر حد المعرة من انقرا (١) ومن الغرب مضافات مصياف وقلاع الدعوة وليس لها نطاق يدور على غير ولاية يرعاها الخاص بها نفسها وبارين والمعرة .

وقال شيخ الربوة (١) في القرن الثامن ان الشام كانت تنقسم على عهد الدولة التركية الى ثمانية اقسام او ممالك والمملكة الرابعة من الثانية حماة وبها سلطان ملك وتائب . مثل وهي مدينة حسنة خصبة كثيرة الخير والارزاق يحولها النهر العاصي وبانيتها جاريًا من جانبها ويجمع بين الجانبين قنطرة ومن اعمالها الكبار بعين وتسمى بارين (٢) وهي قلعة منيعة وسلمية وهي على سيف البرية بناها عبد الله بن صالح وعلي ابن عبد الله بن عباس ولها فتنة كبيرة

وذكر حماة غرس الدين الظاهري (٣) بلفظ المملكة ايضاً وقال انها مقسمة تشتمل على مدن وقلاع واقليم وقرى واعظم مدنها حماة وانت قلعتها اخرها تيوراك وبها جوامع ومدارس ومساجد واماكن ومزارات

ووصف ياقوت قرون حماة المروفة الى اليوم فقال انها ثلثان متقابلتان وجبل يشرف عليها ونهرها العاصي وبين كل واحد من حماة وحمص والمعرة وسلمية وبين صاحبه يوم وبينها وبين شيزر نصف يوم وبينها وبين دمشق خمسة ايام للقوافل وبينها وبين حلب اربعة ايام

وحماة اليوم لواء في الشمال من ولاية سورية ومن اعماله سلمية وقسم من جبال الكلبة او النصيرية وحمص واكثر اراضي هذا اللواء سهلية الا ما كان من انحاء جبل الكلبة ففيه ما في الجبال من سهول وآكام وتربته حسنة وما كان على مقربة من العاصي يسقى منه فينبت فيه القطن والقنب والحرير والبصل (القنار) والخروع وانواع البقول والاشجار وما كان بعيداً عنه يكون عذياً وخصوصاً في الحبال التي يسمونها بالزوار فانها على غاية من حسن التربة وقوة الانبات بما يتوفر القاتون عليها من التسמיד

(١) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (٢) بارين بلدة صغيرة ذات قلعة قد دثرت ولها عين وبساتين وهي على مرحلة من حماة وهي غربي حماة ببيلة يسيرة الى الجنوب وبها آثار عمارة قديمة تسمى الرنية لها ذكر شهير في كتب التاريخ وحسن بارين هو حصن احده الغرنج في سنة بضع وثمانين واربعمائة ثم ملكه المسلمون وبقي مدة ثم اخرجوه .
(٣) زبدة كشف الممالك

الذي يأتون بسماحه من القرى المجاورة بحيث يكون دخلهم منها يوازي دخل أهل حدائق دمشق وبعض قراها مثل كفرسوسة والقابون وجوبر .

وموقع مدينة حماة والعاصي يشطرها وأنواعها غير ثن عن إيمانها وثمانيتها من أجل المناظر ولا سيما في فصل الربيع ومن أجل التزهات عندهم الركوب في قارب وقطع جانب من العاصي فبرى المتنزه شفاف العاصي مخضلة بالثمار البانعة تعكس على المياه خضرتها ونضرتها وليس في حماة ما يستحق الذكر من أنواع العمران إلا بقايا صناعات قديمة مثل حياكة الأقمشة للثياب والفوط والستائر والأعشة والنرايج (التي) وغير ذلك من الأمور الحظيرة وليس فيها مدارس أهلية ولا خزائن كتب عامة ولا مطابع ولا صحف يومية اللهم إلا مطبعة واحدة وبعض صحف أسبوعية وشهرية لا نسبة بينها وبين مكانة حماة القديمة .

أما آثارها القديمة فأهمها دار أسعد باشا العظم أحد ولادة سورية في القرن الثاني عشر وصاحب حماة بني هذا القصر منذ نحو ١٧٠ سنة على إجل طرزي على مقربة من نهر العاصي وزين بأنواع النقوش والتصاوير ويظن أن صناعه كانوا من الفرس لأن في نقوشهم كثيراً من النقوش العجمية وبعض الأبيات الفارسية ومن أبدع ما رأيناه فيها قطعتان من الخشب جعلتا في حائط الغرفة الكبرى في الدار البرانية ونقشت عليهما صورة حماة ^(١) في ذلك العهد بجوامعها ومدارسها وأنواع غيرها وقصورها والمناظر إليها يبين أن المرسوم هو حماة بعينها وإنها كانت إذ ذاك عمر مما هي عليه الآن والغالب أن الزلزال الأخير أضرها قليلاً . وبالجملة فإن قصر ابن العظم في حماة حري بأن يزار كقصره سيف

(١) كان فن الرسم كان مرتقياً في القرن السابع والثامن فقد ذكر أبو الفدا أن الشيخ علم الدين فيطر المعروف بشعاسيف كان مهندساً فاضلاً في العلوم الرياضية (توفي سنة ٦٤٣) بنى للملك المظفر إراجاً بحماة وطاحوناً على نهر العاصي وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعملت هذه الكرة بحماة قال القاضي جمال الدين ابن واصل وساعدت الشيخ علم الدين على عملها وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها وسألنا عن مواضع دقيقة فيها . وجمال الدين هذا هو قاضي القضاة بحماة (٦٩٧) كان اماماً مبرزاً في علوم كثيرة مثل المنطق والمهندسة والأصول والهيئة والتاريخ وله عدة مصنفات منها الانبرورية سيف المنطق صنفها الانبرور (الامبراطور) ملك الفرنج صاحب صقلية لما توجه إليه رسولاً في أيام الملك الظاهر بهبرس الصالح صاحب مصر والشام سنة ٦٥٩

دمشق وهندسة القاعة هنا وفي حاة واحدة والغالب ان من بنوا هذه بنوا تلك وكذلك
الناقشون والمزبنون

قلنا ان سكان حاة خمسون الفا دع عنك من في ضاحيتها من امهات القرى وما نظن لواة
حاة يقل عن اربعمائة الف نسمة لان بعض سكانها مكتوم في الاحصاء الرسمي ولا يحا
سكان جبال انكلية وهم نصيرية واسماعيلية بالنظر لما رأوا من الضغط والشدة في
الازمان الغائرة . وفي قضاء العمرانية حصن مصياف وفي قضاء المرقب القدموس وهما من
الاماكن المعروفة عند الاسماعيلية ولها ذكر في التاريخ
على قبر ابي القدا صاحب حاة

حنانيك اسمعيل اجبني فدتك نفوس الملوك يا عالم وعادلم وسيدهم . كنت سيف
عصرك مثال العمل الصالح وها انت لمن بعدك عبرة لمن يعتبر .
زرت قبرك الشريف وذكرت سيرتك المثلى فكيت على الاسلام والعرب وقابات
بما قرأته على ضريحك بين السذاجة الغالبة عليك ونخفخة الالقاء بعدك .

قرأت : « هذا ضريح العبد الفقير الى رحمة ربه الكريم اسماعيل بن علي بن محمود
ابن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن ايوب عمر في شهور سنة سبع وعشرين وسبعماية » جملة
لا يجوز نقشها اليوم على قبر احد العامة فإين انت منها يا ابا القدا في مفاخرك وسؤدك
ومجدك القالدو الطارف

حنانيك اسماعيل كنت في حياتك قدوة الملوك العادلين تعلم الناس حب الخير
وتعلم العلماء فيما توفروا عليه والفالحين ما يفاخرون بمعرفته والحكماء ما هو ثمة اعجابهم وها
انت الآن رهين حقرة قد كاد ينسى بين قومك ذكرك فلا تبدي ولا تعيد وقومك
نسوا دينهم ودينام فكيف لا ينسون رجالهم

نشأت ايها السلطان العادل من بيت عز وملك فلم تأخذ الزخارف بلبك بل تخرجت
في العلم وربيت على ادب النفس وادب المدرس حتى جاء منك عالم بل معلم للعلماء بسيرته
ونقته .

نشأت نشأة عالية في القرون الوسطى وغيرك من الملوك نشأوا ولا سجا بعدك نشأة
جاهلية على الخمر والزمر والتعمر لا يعرفون غير التصور والولدان والخور وغابة مفاخرهم
انهم يبطون ولا يبالون بقتلون ولا يتألمون بشعائهم ولا يتواضعون بقضون فلا
يراجعون بأمرهم ولا يعدلون .

اضحت احكام بعض الملوك بمدك ذوقية واعمالهم على الاكثر استبدادية . اتخذوا الاسلام ديناً وهو منهم بريء وعيشوا بالرخس والعزائم ليس لهم وازع من انفسهم ولا رادع من اسيهم . انصهروا جبايرة لاملوكاً وشياطين لا انسا وانعاماً لا يعرفون الا ما فيه راحتهم وتوفير قسطهم من اللذائذ والبذخ والنعيم .

كنت ابالفدا ملكاً بالامم وماسكاً بالفعل كنت شريفاً مجاضيك وحاضرك وها انت الى يوم الناس هذا الى نكد وما بعد غد شريف في عامة احوالك .

لم نعهد لك كما عهدنا للملوك قبلك وبعدك ان تعدد الرعية كالسائمة التي تملك فينصرف مالكم بدرها ووبرها وجلدها ولحمها ويعمل مطلقاً في الاستمتاع بها لا ينازعها متنازع . يلى عهدناك تواسي الضعيف ولا تجور على الفقير وتحسن للعلماء وتفضل على الفقهاء والادباء والشعراء وتصرف فضل اوقافك في التاليف والتصنيف باثني المأمون بملك وعقلك وثاني صلاح الدين بعدك وجهادك .

ابا الفدا ان قومك اغفلوك وسيرتك بل اعملوا ضرب يحك ولو ذكروك اساروا ولو قليلاً على سننك المحموده فعملت الملوك من بعدك بسيرتك الطاهرة كما كنت سيف عصرك خير معلم للملوك العادلين والعلماء العالمين

ابا الفدا ان الملوك بعد عصرك جمعوا كثيراً واضاعوا كثيراً فجمعوا فكان ملكك بجانب ما ملكوا جزءاً صغيراً جداً وما خلفوا الا ما تحمر وجوههم خجلاته وياتون في الآخرة وقد شهدت عليهم لاهم اعمالهم وانت سعدت بمن وليت عليهم وسعدوا بك فأبقيت ذكرآ لا تنحوه الايام

انت علمت الخلق بان القليل مع العقل يستفاد منه أكثر من الجز بل بدونه وانت وفرة المال والاقار لا تكون من السعادة في شيء اذا لم تسبقها نفس مهذبة بالآداب والفضيلة وعقل يحسن التصرف بما يملك .

من لي بنظرة منك لترى ما حل بالعرب اليوم من التزيق والتفريق والفساد في المعاش والمعاد والجهل المطبق وضعف العقول . رغم اخلاف من حكمت للذلة وخنعوا للامتداد وتفرقوا تحت كل كوكب فرثي لهم الصديق وشتت بهم العدو وخاتمهم الدهر وكل ذلك بما فعله سفهاء الاخلام من امراضهم وعلائهم كانوا ظالمين .

قم وانظر فقد بدلت الارض غير الارض بعد عصرك . اخترع الافرنج في زماننا البخار والكهرباء ووفروا مرافق الحياة وقربوا الابعاد وحسنوا العيش اما قومك فليس

لم من مدنية القرون الاخيرة الا النظر وزادوا على جهلهم فساداً في اخلاقهم بحيث لم يبق لهم من الاجهاد الا ان يعودوا الى صحيفة اجدادهم ويفخروا بما تم على ايدي امثالك كالقرعاء تغفر شعر أمها او العجوز الشوها لا نفتأ تذكر ماضي شبابها .

قالوا ان نظام الحكومات بعد ايامك اراقت وانكم كنتم في عصر نقل فيه القوانين الوضعية وكان اكثر العمل بالقوانين السابوية فن لتابعصرك فان القوانين الوضعية ازلت ولكن عند غيرنا من اهل الغرب والقوانين السابوية امرضنا عنها الا قليلاً فلم نحسن تقايد المقتنين المحدثين ولا استفظنا بآثار الاقدمين فكنا كالعقري اراد ان يعيشي كالجبل فمسي مشيته ولم يمش مثله بل كنا من الاخسرين اعمالاً

الا عطفة من نظراتك الرشيدة ايها الكريم فنظر امتك الآن الى الانقراض اقرب منها الى البقاء : كل يوم تصغر رقعة بلادها ويحيقها الخراب وينقصها من اطرافها تحاول تقليد الراقيين من الامم فلا تراها تستطيع الا تقليدها في الموبقات والشرور لا يفي مقومات الحضارة والسلب النبوض .

رحماك ابا القدا انت اثالثك انفقوا اموالهم واموال الامة في شهراتهم على المغنين والمغنيات والكواعب الغانيات وانت اتفقتها على العلم والعلماء . انهم اذا كانوا جهلة اغبياء فقد كنت العالم المورخ ابغرافي الطيب الحكيم الفلكي ومهتفانك شاهدة لك على غير الدهر بانك عالم الملوك وملك العلماء . خلد اضرابك بسيرتهم صيت بطش وفنتك وقطع وقت في البحث وانت ائت نصاب العدل على من وليت امرهم فكانت ايامك رياض الازمنة وبهجة العصور فجزاك الله عن أمك اجزل ما يجازي ملكاً صالحاً عن رعيته وعالماً عاملاً يخدم الناس ائمة وفقيكته

المملكة الحمصية

ربما يستغرب بعضهم اطلاق لفظ مملكة على حمص فقد كانت عظمى في الجاهلية والاسلام . كانت الشام على عهد الروم مقسومة ^(١) اربعة اقسام قسم قصبته دمشق وقسم قصبته طبرية وتسمى الاردن وقسم قصبته حمص وقسم قصبته ايليا (القدس) وتسمى فلسطين وكان لهم في كل عمل بطريق من البطارقة يحفظه وبعث الخليفة الاول لما اراد فتح الشام الى كل عمل جندياً وأمر اميراً فبعث الى حمص ابا عبيدة بن الجراح وسميت هذه الاعمال يومئذ اجناداً وكانت قنسرين مضافة الى حمص ثم افردت

الى حمص ثم صار الشام في خلافة الرشيد مقعوماً الى ستة اجناد ثم قسم في الدولة التركية الى تسعة اقسام منها قسم ملكه التتار والارمن والروم وانفصل عن الشام وسمي روماً .

وكانت اقاليم حمص^(١) عبارة عن اقليم حماة واطليم شيزر واطليم قامية واطليم معرة النعمان واطليم صوران واطليم لاسمين واطليم تل منس واطليم الغلاس واطليم كفر طاب واطليم جوسية واطليم لبنان واطليم الشعرة وخمسة اقاليم التتة واطليم البلعاس واطليم البارة واطليم الرستن واطليم زمين واطليم التسطل واطليم سلمية واطليم عقبرتا واطليم الجليل واطليم السوبدا ورفنية وتدمر . وخارج حمص ثلثائة الف واربعون الف دينار

وكان يحمد عمل حمص في القرن الثامن من القيلة قرية القصب^(٢) المجاورة لقرية جرسية - وجوسية - من كور حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق تمر بها السكة الحديدية بين بعليك وحمص وهي بين جبل لبنان وجبل سنير^(٣) (فلون) - اتخذ هذا الحد الى النيك الى القرنيين ومن الشرق السماوة الى الغرات ينتهي الى مدينة سلمية ولها قلعة فثار بها تعرف بشميش ومن الشام ما بين سلمية الرستن ومن الغرب نهر الارنط وهو العاصي ومدينة هذه الصفقة حمص وهي دار ملك البيت الاسدي ولم يزل لملكها في الدولة الاسلامية سطوة تخاف وبأس يحذر وبها القلعة المصنوعة ولا منعمة لها ولها بناية جليلة وعسكر وتشتمل هذه الصفقة على ولاية قارا وهي قبلي حمص وولاية مدينة حمص نفسها وولاية سلمية وولاية تدمر وهي ما بين القرنيين والرحبة .

هذه المدينة العظيمة التي كانت مملكة وولاية الى القرون الوسطى ضعفت في القرون الحديثة حتى اصبحت اليوم قضاء من عمل حماة واما تاريخها قبل الاسلام فقد ورد ذكرها في مصنفات بلين الروماني باسم اميزا (Hemisa) (Emèse)

وذكر الحصون قبل عهده في جملة سكان الحيام Scénites الذين قاتلهم الرومان ومن مشاهير حمص قبل الاسلام هليوكابال روبا سانيوس الكاهن الاعظم في معبد الشمس (بعل) في حمص الذي بويج امبراطوراً رومانياً سنة ٢١٧ وقد استولى الصليبيون على حمص سنة ١٠٩٩ م .

ولحمص وجند حمص ذكر كثير في كتب الفتوح^(٤) منها ان اهلها صالحوا ابا عبيدة

(١) ابن خرداذبة (٢) ابن فضل الله العمري (٣) ياقوت الحموي (٤) فتوح

البلدان للبلاذري

على مائة الف وسبعين الف دينار وذلك لان الحمصيين كانوا مخوفين لحرب هرقل عنهم وما كان يبلغهم من كيد المسلمين وبأسهم وظفرهم فامنهم الفاتح على انفسهم واموالهم وشور مدبنتهم وكفائهم وارحاثهم واكتفى عليهم ربيع كنيسة يوحنا المسجد واشترط اخراج على من اقام منهم وقسمت حصص خططاً بين المسلمين حتى نزولها واسكنتهم عاملها السمط بن الاسود الكندي في كل مرفوض جلا اهلها او ساحة متروكة وكانت مدينة حمص مفروشة بالصخر فلما كانت ايام احمد بن محمد بن ابي اسحاق المعتصم بالله شغبوا على عاملهم الفضل بن قارن الطبري اخي مايزديار بن قارن فامر بقتل ذلك الفرش فقتل ثم انهم اظهروا المعصية واعادوا ذلك الفرش وحاربوا الفضل بن قارن حتى قدروا عليه ونهبوا ماله ونسأه واخذوه وقتلوه وصلبوه فوجه احمد بن محمد اليهم موسى بن بغا الكبير مولى امير المؤمنين المعتصم بالله فحاربوه وفيهم خلق من نصارى المدينة ويهودها فقتل منهم مقتلة عظيمة وهزم باقيهم حتى احرقهم بالمدينة ودخلها عنوة وذلك في سنة ٢٥٠ . قال البلاذري ويحمص هري^(٢) يرد قح وزيت من السواحل وغيرها بما قوطم اهل عليه ومجالت لم السجلات بمقاطعتهم

وفرش طرق حمص بالصخر قديم جدد مرات قال ابن حوقل ان جميع طرق حمص من اسواقها وسككها مفروشة بالحجارة والبلاط وذكر الجغرافيون (١) من حسن بناء حمص انه لا يوجد بها دار الا وتحتها في الارض مغارة او منارتان وماذا ينبع للشرب وهي مدينة فوق مدينة . وقال بعضهم ان مدينة حمص هي سوريا وكان بها مرصدان اشبه بالمرصد الذي كان عند عين الهرمل وهو من مرصد الصابنة .

قلنا ان الفاتح صالح اهل حمص على ربيع كنيسةهم للمسجد وقد ظلت كذلك الى القرن الرابع (٢) وبعض يسميها المسجد الجامع وشطرها للنصارى فيه هيكلهم ومذبحهم ويبيعهم من اعظم بيع الشام . وقد دخلها الروم في الاسلام مرات واخربوها واتوا على سوادها وزاد اختلالها بعد دخول الروم اليها ثم ان قوماً استوطنوا من مسلم من الروم فانت البادية عليهم تأكل زروعهم كما كان يحدث ذلك لها الى عهد غير بعيد حتى القرن الماضي .

سكان حمص والحثيون

الاربع ان سكان هذه البلاد مزيج من ام مختلفة باختلاف الفاتحين ففهم دم من (١) شيخ الربوة (٢) ابن حوقل (٣) بالضم بيت كبير يجتمع فيه طعام السلطان

معظم الاجناس التي حكمت هذه البلاد واعم عناصرها الحيثيون والروم والعرب قما
« وقع سيفديار كلب (١) من القرى تدمر وسمية والعاصمية وحمص وهي حميرية
وخلقها عما يلي العراق حماة وشيزر وكفرطاب لكفانة من كلب » وحمص كدمشق وما
يليهما ديار غسان من آل جفنة وغيرهم .

اما الحيثيون (٢) فهم جنوبيون وشماليون وكان الجنوبيون في جهات فلسطين
والشاليون نزلوا اولاً جبل اللكام « امانوس » ثم انتشروا بكون الايام من الفرات
الى حماة وحمص ومن دمشق وبيروية تدمر الى كبدوكيا . ويظهر من الآثار المصرية
انه لم يكن لهم ملك واحد بل كان لكل فصيلة منهم ملك

ولم يعرف شي عن الحيثيين الشماليين قبل ان يمر الرحالة بروكهارت الانكليزي
بجدة سنة ١٨١٢ ويرى على جدار ازقتها خطوطاً قديمة بالخط المسند الميسري اي
الهيروغليفية تختلف عن الآثار المصرية ثم جاء بعده بعض رحالة من الاميركان والانكليز .
واخذ العلماء بالتنقيب عن امثال هذه الآثار فعثروا على كثير منها في حماة وحمص وحلب
ومرعى وكرميش (ايرابوليس) وفي كبادوكيا وفي محال اخرى من آسيا الصغرى
وقد علم من هيئة وجوه الحيثيين الشماليين على ما رسموا في الآثار المصرية انهم اقرب الى
الروتانو (كذا تسمى الآثار المصرية شعباً كان يسكن سورية الشمالية قبل الحيثيين او في
جانبهم) منهم الى سكان فلسطين ولون وجوههم ايض ضارب الى الحمرة .

فلما اول محل احتلوه اودية جبل اللكام ثم اخذوا يسيطون ولايتهم شيئاً فشيئاً نحو
الشرق والجنوب حتى اتصلوا شرقاً الى الفرات فاستقوذكوا على كرميش وغرباً الى وادي
العاصي فاستولوا على حماة ثم على قادس في جانب حمص ثم غالبوا الآراميين في دمشق
نفسها فتحكموا فيها مدة وسيطوا سلطانهم في وقت غير معلوم الى الشمال والشمال الغربي
حتى ضبطوا آسيا الصغرى

وقادس كانت في بيروية حمص (٣) وقد صورت على الآثار المصرية لان رعمسيس
الثاني احد فراعنة مصر حاصرهما ايام غزاه فراعنة الدولة الثامنة عشرة سورية وبلاد
اشور مرات ثم ضعفت مصر في آخر ايام هذه الدولة فنبذت سورية وفلسطين طاعتها

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني (٢) تاريخ سورية للطبراني يوسف الدبس

(٣) هي قدس قال ياقوت انها بلد بالشام قرب حمص من فتوح شرحبيل بن

حسنة واليه تضاف بحيرة قدس

وكان الحثيون في هذه الاثناء تغلبوا على الزوتانو في شمالي سورية واجلهم من عقر دارهم وانضموا اليه مملكة واحدة فسحة الارجاب. تسيطر من شاطئي الفرات الى جبل طوروس والى البحر المتوسط وتمتد جنوباً الى قادس بل الى دمشق ايضاً. اخفق رعمسيس الاول في اعادة سورية الى طاعة لان خصومه فيها كانوا قد جمعوا شملهم وقد لاحظ مسيرو في تاريخ الشرق ان الفراعنة لم يكونوا الى تلك الايام يعتبرون ملوك سورية بمنزلة ملوك م. اوين لم او نازلون ا قد صلح معهم بل كانوا يحسبونهم امراء ينكحون بهم او عصاة يحررون عقابهم وكانت نهاية الحروب معهم صاغرين دون شرط او تدميرهم التام.

والظاهر من الآثار ان سابقه الاول ابن رعمسيس اراد ان يستريح حتى الحثيين فقاتلهم قرب العاصي على قلعة قادس وطالت الحرب الفروس وتعددت المواقع الى ان افتتحها المصريون واستلمت الحثيون في الدفاع حتى ابيوا فرعون فاضطر ان يوقع على عهدة صلح مع مولنار ملكهم عهدة ضمنت له سلامة مملكة حتى ردت عليهم قادس مدينتهم وبعد حروب طويلة على عهد رعمسيس الثاني مع الغيتيين وقد كلت الامنان المصرية والحلية من اوراق الدماء وعقدتا عهدة صلح وجدت صورته منقوشة على ظاهر جدار هيكل الكرنك بمصر انقطعت سائر الغزوات بين المصريين والحثيين مئة سنة وتزوج رعمسيس ابنة ملك الحثيين فتوطدت دعائم الوفاق بين الشعبين.

ويتلخص من اخبار تغلت فلازار الاول ملك نينوى وكان نحو سنة ١١٣٠ ق. م انه كان للثيين في عهده حولة كبرى في شمالي سورية خاصة حتى كانت البلاد تسمى باسمهم اي بلاد الحثيين وكانت ولايتهم تمتد من لبنان الى الفرات وكانت بلاد الآراميين خاضعة لسلطانهم وتسيطر ولايتهم شمالاً الى مدخل البحر الاسود فتوذي اليهم الجزية قبائل كبادوكيا (في آسيا الصغرى) وكانت عاصمة الحثيين كركيش. وكانت كركيش هذه في محاربة الاشور بين للثيين ما كانت قادس في محاربة المصريين لم فكانت قادس حصناً متيناً يحترق طريق آسيا في واديها العاصي وكركيش مثلها على الفرات ونفصلها بانها كانت محطة تجارة ايضاً بين مغرب آسيا ومشرقها.

وقد اكتشفت آثار مدينة كركيش سنة ١٨٧٥ وكان اسمها عند العرب جرابولس ويسمىها الاتراك جرابولس محرف جرابولس اي المدينة المقدسة وموقعها على الفرات في الشمال من نهر الساغور المعروف الآن بالساجور وفي الشرق من حلمان او حلفان وهي

حلب ومن خرزاز المعروفة الآن باعزاز في قضاء كلس وفي الجنوب من بلاد كمكوما المعروفة الآن بملتيس فهي نحو الشرق من حلب واعزاز وعلى ضفة الغرات الغربية وعلى بعد ثلاث ساعات تحت الساجور وست ساعات من البيرة .

جدد شلأصر ملك اشور حملات ابيه على الحثيين بل قضى أكثر مدة ملكه يحاربهم ومن جاورهم . وكان من عادة الحثيين ان يرسموا خطوطهم نائمة للاحفورة فتطرق من الورا على صفائح معدنية لتنتأ الحروف في جهتها الاخرى هكذا كانت عهدهم مع مصر مكتوبة على صفيحة من فضة ونقرأ هذه الحروف تارة من اليمين وتارة الى الشمال وتارة بالعكس فان كانت رؤوس الحيوانات المصورة بها متجهة الى اليمين فنقرأ منها وكذلك ان كانت الى الشمال ونقرأ احياناً من اعلى الى اسفل ومن اسفل الى اعلى . واما اللغة المكتوبة فيها هذه الخطوط فيرجح انها ليست من اللغات السامية فالاعلام المذكورة في الآثار المصرية والاشورية قل فيها ما يمكن رده الى اصل سامي

واشتهر الحثيون بالفتح كما تشهد لهم آثارهم الباقية ولا سيما في حصون بوغاز كوي وايوق في آسيا الصغرى وانفقوا فن تحصين الحصون واستخراج المعادن وصناعة نحو بل الحديد فولاذاً وقد اخذ اليونان اشياء كثيرة في صناعتهم عن الحثيين . قال سايس في كتاب الحثيين ان مصدر فلاح اليونان هو الحثيون الذين افتتحو آسيا الصغرى من اقدم العصور ويظهر ان صناع الحثيين القوا من صناعة مصر ونيوى وبابل اسلوباً خاصاً بهم واخترعوا صوراً منها التمسر ذوالرأسين الذي صار بعد ذلك شعاراً للسلطين السجوقيين ولبعض ملوك اوربا اما ديانة الحثيين فيظهر انهم اقتبسوها عن بابل وبثوها في سورية وآسيا الصغرى وتطرفت الى بلاد اليونان فان معبودات البلاد المذكورة واحدة وان اختلفت اسما .

نبذة في عمران حمص

ليس في الايدي مصادر يعتمد عليها لاصدار حكم مستمر على عمران حمص في القرون المختلفة وغاية ما يفهم من روايات مؤرخي العرب وجغرافيتهم ان حمص في الاسلام كانت عامرة وان الزلازل اضررت كثيراً بعمرانها وان مدينة الرستن من الشمال وجوسية من الجنوب والقربتين ومهين وحوارين وتدمر من الشرق كانت من اهم عمالاتها قال ابو فضيلة يمدح بني العباس ويشير الى انهم ذكوا آثار الامويين في الشام :

وامست الانبار داراً تعمرو وغربت من الشام ادور

حمص وباب التين والموتفر ودمرت بعد امتناع تدمر

والموتفر حصن بالبقاء وكان ينزله الامويون وكذلك حمص وباب التين وتدمروا
اذا اخضنا عباب معجم البلدان نقرأ فيه اسماء مدن كثيرة اكثرها دائر اليوم فمنها مدينة
« الموتفة » كانت بقرب سلمية وعلى آثارها بنيت هذه وسلمية اليوم كحمص قضاء من
اعمال حماة ومنها « مرتين » وهي من قرى حمص بين الرستن وحماة معروفة الى اليوم
و « مرقية » قلعة حصينة في واحة حمص كانت خربت فجدها معاوية ورتب فيها
الجند واقطعهم القطار و « لطمين » كورة بحمص ولها حارة و « كفر نغد » ولعلها
كفرنان و « القرشية » قرية بسواحل حمص وهي آخر اعمالها و « فوز » من قرى حمص
ولعلها محرفة عن فيروزة و « غنمر » واد بين حمص وسلمية والنام في قول ابي الطيب :

غطا بالغنمر البيداء حتى شجرت المثالي والعشار

و « عقيريات » ناحية بحمص لا تزل موجودة و « الطوبان » و « حوزان » اسم
كورة بحمص وجبل و « شيزر » بينها وبين حماة يوم كانت تعد في كورة حمص
و « سلمية » كانت تعد من عمل حمص كذلك و « رفتية » كورة ومدينة من اعمال
حمص يقال لها رفتية تدمر و « الرستن » قرية مشهورة قال ياقوت : بليدة قديمة كانت
على نهر الميلاس وهذا النهر هو اليوم المعروف بالعاصي الذي يمر قدام حماة والرستن بين
حماة وحمص في نصف الطريق بها آثار باقية الى الآن تدل على جلالتها وهي خراب
ليس بها ذو مري و هي في علو تشرف على العاصي و « دير ميلاس » بين دمشق وحمص
على نهر يقال له ميلاس واليه نسب وهو في موضع نزه ولعله المنزه الذي يقال له الميلاس
اليوم ظاهراً حمص و « دير مسحل » بين حمص وبعبك لا يعرف اليوم ولعله بعض
الخراب التي لم تستمر الا عند سكانها

و « دير باعنتل » غير معروفة وهي من جوسية على اقل من ميل وجوسية من اعمال
حمص على مرحلة منها على طريق دمشق وهو « الدير » على يسار القاصد لدمشق وفيه
عجائب منها آراج ابواب فيها صور الانبياء محفورة منقوشة فيها وهيكل مفروش بالمرمر
لا تستقر عليه القدم وصورة مريم في حائط منتصبه كلمات الى ناحية كانت هيئتها اليك
و « دنوة » كانت من قرى حمص بها قبر عوف بن مالك الاشجعي من الصحابة سألت
عنها فلم يعرفها احد مع ان قبور الصحابة والصالحين معروفة في الاكثر ولعلها في الوها
فان وعمر حمص كبير فيه آثار مبيعة وهو يمتد من حمص الى قرب طرابلس واكثره

وعمر ومن حمص الى قرب حاة فما بعد و « دير اسحاق » غير موجود وهو بين حمص وسليمة في احسن موضع وانزهه وبقر به ضيعة كبيرة يقال لها جدر التي ذكرها الاخطل فقال :

كأنني شارب يوم استبد بهم من قرقف ضمنتها حمص او جدر
ولاهل التصف والشعرافيه اشعار كثيرة :

و « حوط » قرية بمحمص او بجيلة من ساحل الشام غير معروفة و « الحص » غير موجودة وهو « موضع بنواحي حمص نُسب اليه الخمر قال ابو محجن الثقفي :

اذا مت فادفني الى جنب كرمه تروني عظامي بعد موتي عروفا
ولا تدفني بالقلاة فاني أخاف اذا ما مت ان لا اذوقها
وتروي بخمر الحص لحدي فاني اسيرها من بعد ما قد اسوقها

وكانت « انطراطوس » اول اعمال حمص وهي من سواحل بحر الشام وكذلك « افامية » كورة من كور حمص على الساحل و « اعزاز » بلد بين حمص والساحل . وعن ابن واضح « معرة النعمان » و « تل منس » وما والاها من اقليم حمص . و « الجبل » كورة بمحمص و « بربين » من قرى حمص و « بانياس » كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر . و « بكسرايل » حصن من سواحل حمص مقابل جبلة هذه هي حمص وبعض ما عثرنا عليه من اشعارها واعمالها اما اسماء قراها الاميرية فاليكها الآن وعددها ١٣٧ قرية ننقلها عن سجلات الحكومة :

ابودالي . امحارتين عتيق . ام شرشوح . ام النصب . ام حارتين يهودية . ابوهمامة (الاصل ابو امامة ونسبته الى الصحابي المدفون بها) اكوم . معين . ام العظام . ابل . اكراد دباسه . اعور . ام دولاب . بابا عمرو . بلسه . برايو . بريج . بتيه . بويضة شرقية . بوير . برج قمية . تلعمري . تلبسة . تلدو . تلدهب . تارين . تيرمعة . تسنين . تلبي مندو (تل النبي مندو قبلي حمص الى الغرب عند مصب العاصي على البحيرة) . ثونه (وقف جامع خالد بن الوليد) . تلبل . جرنابا . جوبانية . جوسية (قبلي حمص من اضراب وعمار فالعمار من سكة الحديد للزرب والخراب في الشرق وهي البلدة الاصلية) . جديدة شرقية . حفر . حمام . حلاموز . حوارين . حدانة . حصة . حاريك . جديدة العاصي . حوز . حمية . حميدية . حممية . خربة السودا . خربة حمام . خربة تين نور . خربة تين محمود . خربة غازي . دخة . دبين . دير بعلبه . دير فور . مدينة شرقية . دوير .

دار الكبيرة . دلبوز . مدينة غربية . رستن . رام العنز . ريلة . ريان . ربيعة . رأس العين . زور غربي العاصي . زور الموح . زعفرانة . زيتة . بوبضة غربية . زراعة . زيدل . زور بقرايا . زيتا البحرة . سماقيات غربية . سماقيات شرقية . سمعيل . سكرة . سقرجه . شنشار . شمين . شومرية . شيخ حميد . شرقلية . صيادية . صنون . صدد . حفر . طبة . عين غلاط . عين حسين . عز الدين . عامرية . عسيلة . عراقية . عيصون وشلوح . عرجون . غزيلة . شرامير . غنثر . غنطو . غور . فيروزة . قطينة . قريش . قنافية . قزحل . قيرانية وحوش السيد علي . قصيرميري . قوه وشر (ولها اسم ثان وهو تل الور) . كفرعايا . كفر موسى . كفر لاهيا . كفر هدي . كفرنان . كام . لفتايا . مجيدل . مشرفة . مسكنة . مهن . مودان . مباركية . مرج القطا . مرج يولاد . منقطع . متعارض . معصرة . مطيرة . نويحة . ناعم . انقرة . هرقل . هبوب الريح . ميت . وجه الحجر . يوت

وهناك اراض كانت للسلطان الخلع عبد الحميد ثم اديرت الى الخزينة وهالك اسماءها : قرية قصير ومزون دبابة . خربة الضبعة . كوكرات . دحبرج . هنرة . مضابع . عباسية . صايد . فرقلس . برهانية . بلها . رقامة . منزل . شعيرات . وازعية . حربية . عزيزية . حميرات . وهيب . دردغان . عاليات . نخيله . تلة الناقة . خرابة قنية . فيضة . بسية . حولاية . دويلب . مخرم فوقاني . مخرم تحافي . تل الطويلة . سليمية . نوا . حميدية . ام العمد . شوكتية . جهنم . وريدة . جب عباس . تل الاغر القبلي . جوسة الخراب (قبلي الخط الحديدي وغريه) . ام التين . سنكري شمالي . سنكري قبلي . ام العلب . تل الورد . دوير شرقي . دوير غربي . مسعدية . ام السرج شمالي . ام السرج قبلي . ام الجباب . جينيات . حراقي . لثان وام قدوم . فطيم العرنوق . عيون حنين . مسعيد . مكسر الحصان . هبرة غربي . هبرة الشرقية (ولها اسم آخر مزرعة هنداي) . مزرعة جب الجراح . مزين البقر . تلول الهوا . رحوم . مزرعة ام صهيرج . مشرفة . ام جامع

هذه اسماء قرى حمص وخرايبها وبعضها اناجداً عن مراكز الحكومة وخرب لعت انبادية فيه مثل القرينين مثلاً فلو جعات القرينين قضاء مع ما يصاحبها من القرى والمزارع وكذلك جت الجراح لزيد العمران والسكان لا محالة وخصوصاً اذا اباعت الحكومة مزارعها وخربها من الاهلين بيدل المثل اذا لا شترها الحمصيون انفسهم لان من اهلها من هو غني

جداً يتساوى في ذلك مسلموم ومسيحوم فالزراعة بيد المسلمين والتجارة بيد المسيحيين وكثير من الفريقيين هاجروا الى مصر واميركا فاعتنوا وتأثّلوا حتى ان اهل حمص سموا لهم مدينة باسمهم في الولايات المتحدة على نحو ما سمى جندهم مدينة باسمهم يوم فتحوا بلاد الاندلس .

قال ياقوت ان في حمص مدارس وقال ابن جبير ان بها مدرسة واحدة وليس بها مستشفى على رسم مدن هذه الجهات مثل حماة وغيرها اما اليوم فليس بها مدارس دينية مهمة فيما علمت سوى بعض مدارس للعلوم الدنيوية مثل مدارس الروم والكاثوليك والبروتستانت وبعض مدارس حديثة اهلية أنشئت للمسلمين وبها مدرسة رشدية اميرية وبها مطبعة اسمها حمص تطبع جريدة حمص وجريدة جادة لرشاد وغيرها . وثالث اهل حمص غير مسلمين والباقيون مسلمون وكان اهلها كما قال ياقوت « من اشد الناس على علي بن ابي طالب فلما انتفضت تلك الحروب صاروا من غلاة الشيعة حتى ان في اهلها كثير ممن رأى مذهب النصرانية واصلهم الامامية » اما ما قاله كثير من المؤرخين والعمرائين في ان البلدة يكثر في اهل حمص منذ القديم فهو مشهور عن عامتها لاعن خاصتها فقد اشتهروا بذلك فصار يتناقل عنهم القرن بعد القرن وما خلا قرن فيها من خاصة فضلاء عقلاء ودليل عقلهم اليوم انهم كانوا بعد الدستور اسبق البلدان السورية الى ورود حياض المدينة وقد انتفعت بلدهم بمد السكة الحديدية العربية الممتدة منها الى طرابلس وكانت البضائع تصدر منها وترد على الجمال والبغال والركبات والحوافل وسيزيد عمرانها يوم يمتد منها خط حديدي ضيق الى تدمر ويجعلها السباح بالالوف وتحمل اشعة المدينة والامن الى تلك الربوع في الداخلية وتعيد الى تدمر وارباضها عيد زنونيا

يوم في بحيرة قدس

من يزور حاضرة من الحواضر ولا يشهد ريفها وقراتها تظل معلوماتها عنها قليلة وبظل مقلداً فيما يكتبه وما كان المجتهد كالقائد . وا . في شؤون الدين والدنيا . دعائي صديقي وصفي افندي الاتامي الى قرية . قره وشر فركت واياه عربية حتى وصلناها في ساعة وهي في جوار بحيرة قدس فجمعنا بين ثلاثة امور نافعة الرياضة في الخلاه والاطلاع على نموذج من قرى حمص وزيارة تلك البحيرة التي كان لها ذكر في تاريخ سوريقا القديم كما نسمع اليوم باسم خزان أسوان في مصر للشباب بها خزان حمص يدعى تلعات وادي العامري وخزان أسوان يسقى تلعات وادي النيل .

وطول هذه البحيرة الصناعية ساعتان وعرضها ساعة وقد نسبت لقدس عاصمة الحثيين
او قدشو عاصمة الحثيين الثانية يجتازها العاصي وهي مدودة من مسافة كيلومترين وهناك
برج قديم على الساحل الشرقي وعدة قرى .

وقد وصف جفرانيو العرب هذه البحيرة فقال شيخ الربوة ان بحيرة حمص وهي بقعة
محفوفة ببناء حص محكم وفيها اسماك كثيرة كبار ثم يخرج منها الماء عكراً مثل ماء النيل
ولا يصفو بعد ذلك الى ان يدخل ارض الزوج ويصل الى السو بدية ويصب في البحر
الرومي . وذكر باقوت ان طولها اثنا عشر ميلاً في عرض اربعة اميال وهي بين حمص
وجبل لبنان انصب اليها مياه تلك الجبال ثم تخرج منها فتصير نهراً عظيماً

وقال ابو الفدا ان طولها من الشمال الى الجنوب نحو ثلث مرحلة وسعتها طول السد
وهي مصنوعة على نهر الارنط فانه قد صنع في طرف البحيرة الشمالي سد بالحجر من
عمارة الاوائل وينسب الى الاسكندر وعلى وسط السد المذكور برجان (الآن برج واحد)
من الحجر الاسود وطول السد شرقاً وغرباً الف ومائتان وسبعة وثلاثون ذراعاً وعرضه
ثمانية عشر ذراعاً ونصف ذراع وهو حابس لذلك الماء العظيم بحيث لو خرب السد
سال الماء وغوت البحيرة وصارت نهراً وهي في ارض مستوية وهي عن حمص بمس
يوم في غربها ويصار بها السمك اه .

اذكرني هذه البحيرة او السد او الخزان بما في بلاد الشام من الانهر والخلجان
والبحيرات الكثيرة التي يذهب ماؤها بداداً ولا ينتفع به في السقيا وقد كان القدماء
اعرف بما ينتفع من هذا القليل من اخلافهم سكان هذه الديار اليوم وذلك على قلة ما
كان في عهدهم من الادوات التي احدثتها مدنية الغرب وتقدم فنون الحيل (الميكانيك)
والهندسة والبناء . ولذلك رأينا اعمال اسلافنا شاهدة على الدهر بعظمتهم وان عقولهم
كانت ارقى من عقولنا واعمالهم انعم من اعمالنا

في سورية انهار كثيرة تجري ولا من ينتفع بها من سكان الجوار فلو وقع الارتفاع
بمياه نهر الفرات والعاصي وابراهيم والاردن والبيطاني والازرق كما ينتفع بمياه نهر
الكلب ويردى والاعوج مثلاً لاختصت كثير من الاراضي التي تحرم من المياه اليوم
وكان في المكنة ان تسقى سيماً وتغرس فيها انواع الاشجار

لا تشكو سورية في عمراتها قلة الابدعي العاملة ولا النفوس الذكية ولا قلة الخصب
وسعة الرباع والاصقاع ووفرة الامواه وجودة الاهوية بل انها تشكو من قلة من يفكر

في الانتفاع من ثروتها الطبيعية ولو كانت هذه الحكومة تفكر سيفي عمران بلادها على الأقل على مستوى ما تفكر روسيا مثلاً من دول الارض لاصبحت سورية في بضع سنين من عمر الاقطار تشبه المانيا والنمسا وفرنسا ان لم نفقها لا اعتدال الفصول الاربعة فيها . ولكن جرت الاقدار بان يراجع عمرانا حتى اصبحنا بعد ان كانت سورية انبار العالم في الحبوب ونحن نجلب الدقيق من روسيا وآسيا الصغرى واميركا وفرنسا والحكومة ساهية لاهية لا يهتمها الا قبض الضرائب والعشور ولو اوشكت البلاد ان تبور وبقي النيل الفرنسي ان الاراضي تغل على نسبة اقتدار من يقوم عليها

Tant vaut l'homme tant vaut la terre ولا عبرة في الثروة

الا بما استخرج من كنوز الارض الا بما كان مذخوراً في عالم القوة

المملكة الطرابلسية

كانت طرابلس الشام ايضاً مملكة ايام حكومة الاقطاعات كما كانت صفد والكرك وحماة وغيرها من مدن سورية وكانت مدينة طرابلس او اطرابلس باثبات الف سيفي اولها في رابطة اعظم مدن هذه المملكة بل كانت طرابلس في القرن الرابع كما قال المقدسي اجل من صيدا وبيروت وذكر الظاهري ان طرابلس مدينة حسنة بها جوامع ومدارس واسواق وحمامات وعمائر حسنة وهي على شاطئ البحر المحيط يقال انها شامية مصرية لحسن هيشتها وكانت على عهده تشمل على عدة مدن واقاليم وقلاع وقرى ومن جملة اعمالها قلعة صهيون في جبال الكلبية وقلعة المرقب وحصن الاكراد وقلعة قدموس واللاذقية وجبله والكهف والرذاقة وما والاها من القرى وتشمل هذه المملكة الطرابلسية وتوابعها فيما قيل على قريب من ثلاثة آلاف قرية

وسمى شيخ الربوة مملكة طرابلس بمملكة الساحل وكرسيها طرابلس المستجدة بعد فتح طرابلس الشام بجيش المسلمين في مملكة الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى قال: وبنت هذه المستجدة في سفح ذيل من اذيال جبل لبنان بكورة من اكوار طرابلس بعدها عن طرابلس القديمة المغروبة نحو من خمسة اميال على شاطئ نهر يجري الى البحر (١) وهي سهلية جبلية بحرية برية يظل الماء في جوانبها ولها فتارة على واد بين جبلين يمر عليها الماء من منبعه اليها في ارتفاع نحو سبعمائة ذراعاً وطول هذه القنطرة نحو من مائتي ذراع والنهر يجري من تحتها الى سقي الاراضي ويصب في البحر الرومي

(١) يقال له اليوم نهر ابو علي وكان يعرف قديماً بنهر قادش اي المقدس

ولا يكاد يوجد فيها دار بغير شجر لكثرة تحرق ارضها بالمياه وهذا النهر يتبعث من جبل لبنان . وقد جمعت في بساين طرابلس من الفواكه ما لا يوجد في سائر الاقاليم اصلاً قصب السكر والجليز والمحمضات الكثيرة الزائدة والتماس الذي لا يوجد مثله والثلج وسمك البحر الطري والطير الكثير ومجموعها لم يجمع في بلد غيرها ومن بلادها واعمالها الساحلية البترون وهو حصن من فتوح الملك المنصور وله عمل متسع وأنفة مدينة ساحلية محكمة البناء وانطرسوس مدينة ساحلية

وعدد من اعمال طرابلس حصن عرقا وحصن حليا قال ولها عمل متسع به ولايات ومراكز ومن اعمالها جون ومنه رجليه (٩) والحصان خراب في عصره ومدينة مرقية (مرقب) وجومة عكار اي كورة عكار وجومة بشريه والكورة والحدث باذبال لبنان ولها اعمال يزيد عددها على الف قرية . وحصن عكار (١) حصن متسع من بناء الاسلام وينصب اليه ماء من الجبل المطل عليه ويدخل الى القرية وحصن الاكراد حصن متسع مشرف بين الشام والسواحل ينظر الناظر منه الى الشام وقارى والنبك ويعليك والى البحر والساحل .

قال ومن اعمال طرابلس المستجدة قلاع الدعوة وهي التي ملكها راشد الدين محمد تليذ علاء الدين علي صاحب الاموت في النجم وهو صاحب الدعوة الاسماعيلية والحصون هذه هي حصون الخوازي وحصن الكهف وحصن القدموس وحصن العليقة وحصن المتيقة (البقيعة) وحصن الرصافة باذبال طراز من جهة الشام وحصن ابي قبيس وتغر صيف وهو اهم هذه الثغور في اظهار الدعوة وارسل الرجال القداوية الى البلاد والاقاليم في قتل الملوك والاكابر وحصن بلاطس وحصن متسع جداً وله احد عشر باباً كل باب فوقه باب وحصن المرقب ثغر متسع على رأس شاطئ مطل على البحر كبير مثلث الشكل بناء الرشيد على اثر بناء قديم ثم بناء الصاري ثم ملكه المسلمون في عصره وعمره وحصن صهيون حصن متسع عادي قديم البناء يقال انه من بناء أغسطس ملك رومية الكبرى المسمى قيصر وليس هو أغسطس صاحب التاريخ اليوناني وهذا الحصن صعب المرتقى على قمة جبل وعليه خمسة اسوار وله فُرْضة في الساحل في طرف دخله من الارض كالجزيرة من البحر

وذكر ان اللاذقية محاطة بالبحر من جهاتها الثلاث وهي اشبه بالاسكندرية في بنائها

(١) جبل عكار هو برجليوس القديم

وبارضها معدن رخام ابيض واخضر موثى وبها دير الفارس من اعجب البناء في الديور وله يوم في السنة تجتمع النصارى اليه والمينا الذي باللاذقية من أعجب المواقي في البحر واوسعها لا يزال حاملاً لفسن الكبار وعليه سلسلة من حديد حاصرة لمراكبه مانعة من سراكب العدو وفرضة بلاطنس مدينة جبلة بن الایهم الفسافي جدوت باسمه في صدر الاسلام وكانت مدينة عادية بناها الصابئة وفيها آثار مقر الملك الذي كانوا اصطلحوا عليه في زمن نوح وابراهيم وموسى عليهم السلام وكان له مرب يركب الراكب فيه تحت الارض الى ظهر السفينة بالبحر ويركب في السفينة الى وسطه تحت الارض محجوباً .

وعند من عمل طرابلس مدينة بانياس فقال انها مدينة عبرانية يونانية رومية وبها انهار ساجحة قرية المتبع وبساتين كثيرة من اعجب بساتين الساحل وذلك ان حيطان البساتين متصلة يقرب موج البحر بغير حائل وبين بانياس وجبلة جزيرة صغيرة عندنهر غزير يسمى النهر الابتر وسمي بذلك لقصر جريته وقلة الانتفاع فلا ينشعب منه شعب ولا يتفرع فروع مع غزارته وقوته وعلى الجزيرة دمن حصن يقال له بلدة كان من احسن الحصون بناء وخربه اهله بايديهم دون غيرهم ودخلوا البحر من غيظهم ببعض على بعض وهذه الجزيرة من اعجب الجزائر شأناً بالماء وذلك ان البحر يحيط بنصفها واكثر والنهر يحيط بالنصف الذي الى البر والمالآن مختلطان فالنصف ملح اجاج والنصف عذب فوات وهما في النظر ماء واحد يحيط به من ساورها . ومن اعمال طرابلس ايضاً البقيعة هي الحصن والناعم وجبال القصيرة نحو عشرين عملاً بين صهيون واللاذقية والى البترون والعاقورة

هذا وصف مملكة طرابلس وعمليها في القرون الوسطى وحدها ابن فضل الله فقال من القبلة جبل لبنان ممتداً على ما يليه من مرجع الاسل . حيث يمتد نهر العاصي ومن الشرق نهر العاصي ومن الشمال قلاع الدعوة ومن الغرب البحر وبلاد طرابلس لماقلاص وولايات فذكر من قلاعها حصن عكار وحصن الاكراد وكانت محل النياحة ومقر العسكر قبل فتح طرابلس وبلاطنس وصهيون ثم قلاع الدعوة وهي العليقة والمتيقة والكهف والمرقب والقدموس واغواوي والرافنة ومصيايف وهي دار ملك هذه القلاع الاسماعيلية ولها على قلها الرب العلية وامالها ما فيها فهي انطرسوس واللاذقية وجبة المنيطرة وبلاد الفتيين (الضنية) ومنها بشرية وجبلة وانفة وجبيل وما لعل في تلك مماله ولاية

وبعض هذه البلاد اليوم تابعة للواء اللاذقية من اعمال ولاية بيروت والآخر من

لواء حماة من عمل ولاية سورية وغيره من عمل متصرفية جبل لبنان وبعضه من عمل طرابلس كحصن الأكراد وعكار وصافيتا ونواحي المنية وحذور والفنية وطرطوس وارواد وطرابلس هي احدى الولاية ولاية بيروت وهي اللاذقية وعكا ونابلس .

وبدأ أول عمل لواء طرابلس من السفح الجنوبي من لبنان ومن السفح الشمالي من جبال النصيرية فهو بين منفسحي هذين الجبلين وتكثر انهاره واعظمها النهر الكبير في عكار ويسميه القدماء نهر ابلوتروس *Elautherus* ومن ضفته الشمالية تبتدي البقعة وهي سهل فسيح اشبه بسهل البقاع في لبنان الشرقي

سميت طرابلس بهذا الاسم اي البلاد الثلاثة (تريبوليس) *Tripoli* لان مهاجري ثلاث مدن فينيقية وهي صور وصيدا وارواد وكان كل حي من احياء هؤلاء المهاجرين يفصله عن الآخر سور على ان اسم المدينة الفينيقي غير معروف على وجه الصحة وهذه التسمية اقرب الى الرومية ولعل طرابلس لم تؤسس الا قبل المسيح بسبعائة سنة بعد تأسيس ارواد وقد جاء بعد بنائها من الصور بين والصيدونيين والارواديين دولة السلوقيين الرومية فامتلكوها في جملة ما ملكوه من بلاد الشام ثم الرومان فزبنوها وانشأوا فيها ابنية نفخة اثنت عليهما كلها الزلازل المربعة التي اصابتها في عصور مختلفة والاحياء الصليبيون الى طرابلس كان حاكمها ابن عمار من الحكام المستقلين بها فبدأ الكونت ريتوند سان جيل من ملوك الصليبيين بحصارها سنة ١١٠٤ م وذلك بانشاءه حصناً سماه الافرنج مون بلغرينوس *Mons Bellegrinus* وسماه المسلمون سان جيل او سان جيل ولم تؤخذ المدينة الا بعد خمس سنين وذلك باحراقها ومن جملة ما ذهب في حريقها طعاماً للنار مكتبة عربية مهمة كان فيها في بعض الروايات مئة الف مجلد وفي رواية اخرى اكثر من ذلك بكثير ودام حكم الصليبيين في طرابلس ١٨٠ سنة ارتقت في خلالها كما يقول مؤرخوهم على الرغم مما كان يخال تلك المدة من المصائب والحروب الاهلية واستعدادها منهم سنة ١٢٨٩ السلطان قلاوون الصالحى سابع ملوك المماليك البحرية في مصر والشام وبنائها في الداخل بعيدة عن الساحل كحمار آفناً

ودخلت طرابلس في الحكم العثماني على عهد السلطان سليم يوم فتح الشام وظلت مدة تعلق وتسفل بحكم الاقطاعات شأن سائر المقاطعات والولايات وكانت مدة مركز ايةالة ثم الحقت بولاية سورية يوم تأسيس الولايات وكان حفظها ان تتبع بيروت يوم سلخت هذه عن دمشق واصبحت ولاية برأسها

تحتوى طرابلس من السكان على نحو الثلاثين الف نسمة وفي أعمالها زهاء ١٥٠ ألفاً ومساحة قضائها ١٩١ كيلومتراً مربعاً ومساحة قضاء عكار ٢٨٥ وقضاء الحصن ٥١٣ وقضاء صافيتا ٤١٤ كيلومتراً والعنصر الغالب فيها المسلمون ثم ينجيهم أهل الأديان الأخرى ويقال إن أصل سكان طرابلس من جالية العجم ولذلك غلبت عليهم طبائع أشبه بطبائع القرس من حيث الآبهة والثأني

كان المأمول أن ترقى مدينة طرابلس الشام لاتصالها بخط حديدي عريض مع بلاد الداخلية طوله من طرابلس إلى حمص ١٠٥ كيلومتراً ولكننا رأينا هذه المرة على تلك الصورة التي رأيناها عليها منذ نحو عشر سنين لم تكد تخطو خطوة تسمع أن تذكروا لولاشيء من الموبقات الجهرية التي زادت فيها بدخول الأجانب واقتدار الحرية وكان بعضها موجوداً من قبل على صورة سرية لقلنا إن طرابلس هي في منذ بضع سنين

ومن الغريب أن بعضهم لاحظ بان نفوس سكانها لم تزد زيادة تذكر في العهد الأخير مع أن أهلها ليسوا أكثر من سائر مدن سورية وقراها في حب الهجرة ولولا قليل من الصحف انشئت فيها عقيب الدستور لكان يصح أن يقال إن الحركة العلمية لم تزل بجبالها ابصاراً وقد اثر هذه السنة ماشهد من النقص في حاصلات البلاد الداخلية لرداءة المواسم تخف إصدار الغلات من طرابلس وكانت يجملتها التي لنقل الحبوب إليها في السنين الغابرة من جهات عكار والحصن وصافيتا وحمص وحماة وسلمية أكثر حركة منها اليوم بسكنها الحديدية الجديدة ولكن هذه السنة لا نقاس عليها سائر السنين مادامنا موقنين بأن الارتقاء بطيئاً الحصول كالانحطاط ولا بد من قضاء دور الحضارة في الحضارة والسكك الحديدية إذا مدت سبغ الاصفاء المقفرة اعمرتها فما بالك بقطر مخضب البقاع والرباع جيد التربة ذكي الماء والهواء واسع المادة تجود فيه أكثر الغلات والتمزات .

اللهم إن طرابلس ستكون بعد بيروت أهم موافى سورية بعد سنين إذا تعاضد أهلها على ما فيه المصلحة تعاضد هم يوم نالوا امتياز سكة حديد طرابلس - حمص وتركوا اشتغال بعضهم ببعض مما هو من شأن البلدان التي لا تعمل لأهلها ينهضون به فلا يجدون تسلياً لهم سوى الاغتياب والنخبة واكل لحوم بعضهم بعضاً وتسفيه آرائهم فتكون عاقبة ذلك التخاذل والنفاشل وذريعة الانحطاط المبهين .

تمثل لنا في طرابلس كل التمثل ان العتلاء من المسيحيين احسنوا الانفساع بالمستور
اكثر من اخوانهم المسلمين فكان واسطة لنهوضهم اذ كانت لديهم مواد الارتقاء
موفورة الا قليلاً فلما جاء دور العمل هبوا هبوا محموداً ولولا داء الهجرة الذي نفسى
اكثر من غيرهم ولا سيما بسبب الجندية لبلغ اخواننا في الوطن مبلغاً تحسد عليهم
حتى الانم الراقية

فعماماً نسمع عن هذا البلد الطيب كل ما يسر القلوب من دواعي الارتقاء فنقل
وقائعها وحوادثها المزججة وتكسد سوق الفوق الرائجة بما ينال عليها من اموال بعض
اغنياء عسكار والحضن وصافقيا ممن يتصدون طرابلس ليفجروا فيها يتفلقون برضاهم عن
ملاحظة زروعهم وعمران بلادهم .

واذا صح ما يسعى اليه بعضهم اليوم من ثيل امتياز سكة حديدية من حمص الى تدمر
والمسافة بينهما لا تقل عن مائتي كيلومتر تحمل القطارات الى طرابلس بفلات الداخلية
من شرقي سورية كما ينقل الخط الحلي محاصيل البلاد الشهباء

وبعد فقد اشتهرت طرابلس من القديم بمصنوعاتها الحريفة ولا سيما الزناثير الطرابلسية
اللطيفة وكل صناعاتها قد نازعتها المصنوعات الاوربية اليوم وتوشك ان تهبها برخص
اسعارها وجمالها الطامري ومهارة الخبيرين بها في قاعدة العرض والطلب ولكن اوربا
لا تستطيع منافسة طرابلس ولا غيرها من هذه البلاد بمحصولات اراضيها وخصوصاً الثمار
والبقول والفلات وفي طرابلس يعود البريقال والليمون جودته في صيدا وباقا من بلاد
الساحل وقد رأى ارباب الحدائق كيف ربحوا من اراضيهم منذ توفروا على زراعة
هذه الشجرة المباركة

خاتمة

هنا ما شاهدناه ولا حظناه في الرحلة بين دمشق والفيحاء وحلب والشهباء سلطنا بعد
الرجوع الى تفصيص علماء التاريخ والجغرافيا من العرب خاصة وذلك بقدر ما سمحت
الاحوال وقد استغرقت هذه السباحة عشرين يوماً ولو صرفنا أكثر من هذه الفترة
والزمن ولتبعنا الاقاليم اقليماً اقليماً والكور الواحدة بعد الاخرى لاتيتمنا من القوائد باضعاف
ما اتينا وكنا بنا نجمع نستغني بمض الشيء عن الغريبين فيما يتعلق على الافل بتاريخ
هذه البلاد وعمرانها وثقوبها والحمد لله في المبادي والخواتيم